الفنون في التعليم

كفاح فني

«الجمال لن ينقذ العالم، ولكن الجمال في العالم يجب إنقاذه».
حسين جميل البرغوثي

إن مبحث الفنون في التعليم هو فضاء أرحب من رحب، يتيح لنا الإفلات بالإنساني فينا من شروط نظامنا الذي لو افترضنا فيه كل الفضائل، فإنه يبقى نظاماً قادراً فقط على التقاط ومؤاتاة الشريحة التي تقع في المنتصف، بين الأعلى والأدنى المحددين سلفاً من قبل النظام أيضاً، فهل هناك من تعليم يمكن أن يحدث خارج النظام؟ ألن يكون هذا الخروج عن النظام نظاماً أيضاً؟ وهل أروِّج هنا للفوضى؟ لا، مع أنى عادة ما اتّهم بهذا، وهناك من هو محق بهذا الاتهام، لكن هذا ليس ما أود الخوض فيه خلال هذه الورقة.

إذن، ما هو هذا الشكل للتعليم الذي أبحث عنه وفيه؟ إنه شكل التعليم المسند بالفنون، غير قائم على التنافس، وغير مهووس بالقياس، متمحور حول المتعلم، ويسعى إلى المعرفة وليس المعلومات، إنه شكل فريد يبتدع نفسه كتجربة فريدة ووحيدة من نوعها كل مرة يجرب فيها، فما هي السمات الدقيقة لهذا الشكل؟ لا أستطيع هنا أن أدّعي أنى أعرف الكثير، لكن القليل الذي أعرفه هو التالي.

لا يمكن لهذا الشكل من التعليم أن ينجح ويبلغ غايته في ظل نمط حياة مستند إلى أخلاق السوق، ربما يمكن أن يحقق نجاحات فردية ومجتزأة هنا وهناك، لكن سرعان ما يقوم نمط الحياة بمحو الأثر الصغير الذي تتركه هذه التجارب في نفوس مختبريها عند أول مواجهة مع وحش السوق. لست أحاول أن أقول بعدم جدوى المحاولة بالتعليم بهذا الشكل، لكن ما أود قوله أن علينا أن نعي ما نحن مقبلون عليه إذا اخترنا هذا النمط من التعليم، ولعله إن تعمم قد يكون أهم أداة من أدوات تغيير نمط الحياة المستند إلى أخلاق السوق، وما أحاول أن أقوله أيضاً أن العمل على استحداث هذا النمط من التعليم وتعميمه، لا يمكن أن يكون شأناً محض تربوي، إنما سياسي أيضاً وبامتياز. من هنا أنطلق: هل الراهن التربوي هنا وفي أغلب هذا العالم منفصل عن السياسي؟ ربما هناك من يعتقد بذلك، لكني لست منهم، لكن إذا كان هنالك من يعتقد بحق وبراءة بذلك، فدعوني أقول التالي: هل من شك أن ما نعلمه الآن لأطفالنا سيكون بالمجمل ما يسترشدون به غداً عندما يمسكون بناصية المستقبل؟ وهل من شك أن احتياجات السوقين المحلي والدولي بعد أن مزقت الخصوصيات الثقافية والاجتماعية، هي المحدد الرئيس الذي يختار على أساسه طلاب الجامعات تخصصاتهم؟ وهل هو الأمر بعينه الذي يحدد المعدلات المطلوبة للتخصصات، وأسعار الساعات المعتمدة؟ وأياً كان النظام المعمول به، فإن هذا النظام نفسه يعيد إنتاج نفسه، والبرزخ بين «من يملك ولا يملك».[1] ولتأكيد ذلك، سأورد مثالاً آخر وقديماً نوعاً ما: عندما كان نظام تشغيل الحواسيب الشخصية الـ دوس –الذي كان يعتمد على كتابة الأوامر البرمجية- كان تحصص البرمجة هو التخصص الأهم، وبعد أن أنتجت شركة مايكروسوفت نظام التشغيل «الويندوز»، أصبح التخصص الأهم هو التصميم الجرافيكي، وقد يطول الحديث هنا عن التطور والفاعلية، ولكن ليس هذا ما أريد استجلاءه هنا.

عندما أقول تعليماً مستنداً للفنون، لا بد أن أوضح أي نوع من التعليم، وأي نوع من الفنون، هذا إذا كانت هناك أنواع منهما، ولعل في هذا بعض من اللبرلة (من ليبرالي) التي لا أستطيع ادّعاءها إلا لقليل من الوقت ولأجل المحاججة. في مقالة «محيا المحيا ومقاماته»[2] تحدثت عن مثال القطة وعلاقته بالتعليم، وهنا سأتخذ منحى آخر، بناء على جملة من الأسئلة ليس لترتيب وردها هنا أي أهمية.

في حين أنه لا شك في أهمية تعلم المفاهيم الرياضية وعلاقته بالنمو الإدراكي والفهم للعالم الكمي، وأن هذه الأهمية ستبقى إلى أن

يأتي العصر الذي سيتسنى فيه ربط الإدراك بالفضاء الافتراضي كتنصيب المعرفة أو تنزيلها إلكترونياً؛ كما في فيلم الخيال العلمي الماتركس (المصفوفة)، فإن السؤال الذي يطرح نفسه هنا في عصر يمتلك كل فرد تقريباً أجهزة ذكية ومتصلة بالفضاء الافتراضي، ويستطيع الأطفال تعلم استخدامها قبل القراءة والكتابة، هو: ما الجدوى من تعليم الأطفال جدول الضرب، أو ما عاصمة بلد ما، أو ما خصائصه الجغرافية أو حقبه التاريخية، اذا كان ذلك خارج أي سياق إنساني، ومجرد حشو لمعلومات سيتم استرجاعها بامتحان يحدث ضرراً عاطفياً أكثر مما يحدث تقويماً ينبغي –إذا كان لا بد منه– أن يكون للمعلم ونظام التعليم قبل أن يكون للمتعلم؟ وأنا هنا لا أقول إن المعلومات غير نافعة، لكن تحفيظ المعلومات وحشوها في أدمغه أطفالنا بغية استرجاعها في عصر كل المعلومات فيه على بعد نقرة إصبع، يبدو لي ضرباً من ضروب العبث الذي نهدر فيه أعمار أطفالنا، وننهك طاقة إدراكهم، ونؤذي عواطفهم حين نصنفهم إلى ممتاز، وجيد جداً ... إلى راسب، ويرتبط هذا أيضاً بنظام القيم الاجتماعية السائد، ثم نسأل لماذا يتنمر الطلاب الراسبون؟ فلو انتزعنا من كتبنا المنهاجية كل تلك الضروب من المعلومات التي يمكنهم الوصول إليها في أي وقت، فكم سيبقى منها، وأنا أيضاً لا أقول إن المنهاج عارٍ من الجدوى، لأن هناك تعلم القراءة والكتابة والمفاهيم الرياضية، واللغات، والتعرض للأدب العالمي والمحلي، والتأكيد على بعض مناحي التاريخ التي تتعرض لطمس ممنهج كتاريخنا نحن، ولعل هناك المزيد هي جميعها بمثابة مفاتيح لمستقبل كل فرد منهم.

ماذا لو أوجدنا سياقات إنسانية يصبح لهذه المعلومات وغيرها فيها مغزى عاطفي وشعوري في مشروع خيالي أو واقعي، وأتحنا لأطفالنا البحث عن معلومات مجدية للسياق؛ كأن يقول المعلم هذا الأسبوع سننتج فيلماً كرتونياً عن شجرة لوز اسمها سوسن، تمر بالفصول الأربعة بفلسطين، واتبعنا ذلك أو استخدمنا في ذلك «وصف زهر اللوز» لمحمود درويش. طبعاً، أتحدث هنا عن المدارس التي تملك المعرفة التقنية والأجهزة اللازمة، وهي ليست بعيدة المنال بالمناسبة، ولكن هناك أيضاً في مدارس لا تملك الإمكانية، سياقات لا نهائية تؤنسن المعلومات، لتحولها إلى معرفة مذوَّتة، باستخدام المشروع، أو الدراما التكونية، أو عباءة الخبير، أو المسرح في التعليم.

أما السؤال الثاني، فهو حيال هذا الهوس المضني للقياس الدائم، والمعتمد في أغلبه على المهارات العقلية الدنيا، والخالي تماماً من الذكاءات المتعددة: هل لهذا أي قيمة في الحياة كما نختبرها بعد أن نخرج من تلك المصفوفات؟ وبماذا سينفع إذا كنت الأول أو العاشر حين أحاول أن أربي ابنتي أو ابني إذا كنت لا أملك الحساسية؟ هل سأجلسه لساعات وأعنّفه ليصبح ببغاءً يردد قصيدة رديئة كما

جانب من ورشة فنية بإشراف الفنّان الاسكتلندي روس جورجوسن مع مجموعة من الأطفال في مركز المعلمين/نعلين، 2016.

فُعل بي عندما كنت طفلاً، مع أن القصيدة كانت أفضل؟ ولماذا سأطلب من ابنتي أن تكون الأولى على الصف، في حين كنت أنا أتعلم أكثر حين أفر من الدرس إلى الجبل بحثاً عن أعشاب نأكلها أو فراخ شنار؟ ربما هذا مجرد رأيي الشخصي، لكن هذا لا يجعله أقل مشروعية.

والسؤال التالي هو: لماذا لا نعلم أطفالنا كما يحب أطفلنا أن يتعلموا، إذا كان هذا أجدى حتى لو كان الهدف استرجاع المعلومات التي تم حشوهم بها؟ لماذا لا يتم حتى التلقين بطرق تلقى رغبة وحباً في نفوس الأطفال؟ وما هي القاعدة التربوية التي تصر على جعل التعليم منفراً وبعيداً كل البعد عما قد يمنح الطفل بعضاً من المتعة؛ كالتعلم باللعب، أو عبر القصة، أو الفيلم، حتى ونحن نحاول أن نسجن عقولهم؟ فعلى سبيل المثال، هناك فيلم كرتوني حديث للمخرج روب مينكوف اسمه «السيد بيا بودي وشيرمان»،[3] عن كلب خارق الذكاء والتفوق في كل شيء، يتبنى طفلاً آدمياً ويبني آلة سفر عبر الزمن، ويقوم بتعليم ابنه المتبنى، التاريخ، عبر زيارة الحقب التاريخية، ويعيش حكاية شخصية في كل حقبة من هذه الحقب. الفيلم، وخلال أقل من ساعة ونصف، يزور الحضارة الفرعونية، وحرب طروادة، وعصر النهضة، والثورة الفرنسية، وحقبة تأسيس الولايات المتحدة، ويقدم معلومات وافية وبطريقة فكاهية عن كل تلك الحقب، فكم درس تاريخ مملاً نحتاج لكي نغطي هذه الحقب؟

أما سؤالي التالي هنا، فهو حول المعلم: هل يمكن أن نحصل على تعليم جيد دون معلم جيد محب لمهنته ويعرف أهميتها في بناء مستقبل المكان والإنسان؟ الإجابة بالطبع لا، حتى لو كان كل شيء آخر على خير ما يرام. إذن، لماذا لا نستثمر بمعلمينا؟ ولماذا لا نقيم وزناً أو احتراماً لمهنة التعليم؟ لماذا أصبح التعليم مهنة من لا مهنة له؟ ولماذا على المعلم أن يكابد ضنك العيش أو العمل بمهنة إضافية، مع أن التعليم بحد ذاته أكثر من مهنة، ويتطلب أكثر بكثير من أي مهنة أخرى؟

كنت أيضاً تطرقت إلى بعض الأسئلة في مقالة «محيا المحيا ومقامته»؛ كتقيد الحركة، وثقل الحقيبة المدرسية، وتحويل المدارس إلى سجون معماراً ونظاماً، والسؤال الأخير هو: لماذا لا نعلم أطفالنا عن أهم ما يحاولون تعلمه طوال حياتهم؛ ألا وهو تكوينهم العاطفي، وسواء شئنا أم أبينا، فكل فرد منهم سيمر بتجربة وفقاً لنظام قيمه، ويختبر كيف تجعل كلمة الكينونة هذه العالم كما يعرفه واقفاً رأساً على عقب، ولن أتوسع هنا كي لا أثير الجدل مع الأخلاق، لأن هذا ليس ما أحاول أن أفعله هنا.

إن الإجابة العابرة لكل هذه الأسئلة بامتياز، تكمن في الفن، لكن أي فن نتحدث عنه، هذا إذا كان هناك أكثر من نوع للفن، لكن المهم أن الفن الذي أعتقد أنه يستطيع إسناد التعليم هو فن قادر على امتحان قيم المألوف، وتقديم نقده على المجتمع ونظامه؛ فـ«الشعر حربك ضد مألوف قومك».[4] إذن، كيف يمتحن الفن قيم المألوف؟ يفعل ذلك عندما يقدم سياقاً خيالياً في إطار محمي يختبر فيه الأطفال قيماً مسلماً بها في منطقة رمادية، ويتسنى لهم أن يتخذوا قراراً قد يتفق مع القيمة السائدة، وقد يتنافى معها، والخيار هنا ليس مهماً، إنما التجربة بحد ذاتها لهذه القيمة، والقدرة على رؤية ضفتي النهر، واختبار التنزه على كلتيهما دون عقاب، وأي تعليم أفضل من هذا يعدنا لحياة سنختبر فيها، وبشكل يومي، جدوى قيمنا التي نتبناها، أو التي طلب إلينا تبنيها عبر الإشراط الثقافي والاجتماعي، فمثلا «لا تكذب» ستبدو مختلفة حين تعني أن تشي بأعز صديق لك، ومن ثم لو أزلنا الكذب من حياتنا الاجتماعية كم سيتبقى منها؟! أو «لا تسرق» في سياق إن لم تسرق به ستفقد عزيزاً ما، ولست هنا أحرض على القيم، لكن قيمنا الاجتماعية والأخلاقية تبدو بلهاء وخاوية إذا لم توضع في سياق عاطفي، هذا الغامض الهيولي الذي لن أحاول تعريفه إلا إذا ادّعيت الجنون. إذن، ما هو العاطفي؟ هو الانجذاب للجميل، فما الجميل إذن؟ إن تعريف الجمال يتطلب أكثر من الجنون، لكن كما «أجن» أو أكثر (أجن كرديف لأعتقد) هو البرزخ الذي يفصلنا عن كمالنا دون أن يحول بيننا وبينه، أو بالأحرى يبقيه على مسافة قيد الممكن، أو كما تقول الكاتبة عدنية شبلي «كلنا بعيدون بنفس المقدار عن الحب»،[5] ويقول إدوارد غالينيو «إذن فما جدوى اليوتوبيا ... حين تقترب منها عشرين خطوة تمشي بعيداً عنك عشرين خطوة ... جدوى اليوتوبيا اذا كان لها جدوى أصلاً أنها تجعلك تمشي».[6]

إذن، ما هو هذا النقص الذي يقودنا ويدفعنا إلى اجتراح كل تلك الطرق بحثاً عن اكتمال، وهنا ليس أفضل من التحديق بقليل من العمق في عالم الدعاية وفي أنفسنا ونحن نتعرض لكل هذه المواد الدعائية التي تملأ الفضاءات وتفيض عنها. إنها بالأساس ترويج لمستهلكات ينتجها أصحاب حق الربح، ويتنافسون عبرها على ذائقة المستهلك، بل يمكنني أن أقول هنا وأنا مرتاح الضمير، إنهم يتنافسون على تصنيع ذائقة المستهلك، ولفعل ذلك، لا بد من فهم ما للطبيعة البشرية، فما المادة الخام التي تتكون منها الدعاية؟ إنها حاجاتنا الإنسانية الفطرية، وسأعرض لبعض منها هنا، مثل الحاجة للقبول، والحاجة للشريك، فهناك كل ذاك الكم من المنتجات التي تكمل نقصك، وتجعلك أوفر حظاً في أن تلقى القبول الاجتماعي، أو أن تثير انتباه فتاة تشبه أحلامك، أو شاباً قادماً لكِ للتو من أسطورة البطولة والجمال، وهناك أيضاً

غريزة الحماية الأبوية والأمومية، والتنافس الحامي الوطيس على قتل أكثر عدد من الجراثيم، وهناك الألم والمرض، وهناك الرفاه والوفرة، وهناك فضيلة القوة والحداثة ... الخ، حاجات تجرح سلامة وجودنا المحض، وتجعله ناقصاً أبداً ودائماً، والنقص في عالم الثنائيات المتناقضة عكس الكلانية، ولدى ديكارت أيضاً حين استدل به على الله.

نقص ينبغي أن يحدده كل واحد منا لذاته وبدقة إذا أراد أن يعرف حقاً من هو، لكن أيضاً هناك مناطق يمكن التعميم فيها، لأنها في صميم تكويننا كبشر، وسأبدأ مما هو معروف وواضح، وما سمّاه آينشتاين «الشعور المحيطي»[7] في مراسلاته مع سيجموند فرويد –وكلاهما يهودي بالمناسبة– في محاولة الإجابة عن حاجة البشر للدين، هذا الشعور المحيطي يعني أننا نشعر –كأفراد– أننا قطرات منتزعة من محيط أصبحنا أفراداً من ثنائيات وجدت تثنيها، ونحن بدورنا نبحث عن تثنينا وإلى ما لا نهاية.

ثنائيات تثلثت وأوجدت العد والعدد والمقدس والهندسة،[8] ويتطرف هذا الشعور ويدفعنا إلى التطرف في عالم «التجزير»،[9] الذي دفع السيد بينك (الزهري) في فيلم الجدار، إلى اختراق قيم مجتمعه بحثاً عن نجاة من العزلة التي قادته إلى الانتحار، اختراق يثني صلابة الواقعي نحو ليونة الخيالي، حالة لم يكن بإمكانه الوصول إليها دون «مساعدة الفنانين والقلوب النازفة»[10] كما يقول مدعي الاتهام حين يحاكم بينك على خارجيته «ضبط يمارس مشاعر تشبه مشاعر الإنسان»، هذا الفيلم أرضية أساسية لفهم علاقة الفن بالتعليم، ولذا لن أفسد متعة من قد يرغب في مشاهدته، لكني لن أستطيع تخطي فكرة أسبقية الفن على الفكر، إذ تنبأ هذا الفيلم بمصير الإنسان وفق نمط العيش الرأسمالي منذ العام 1979، إنساناً معزولاً ومحاطاً بجدار، ولم يؤتَ على ذكر هذه الفكرة وإدراكها على ما أعتقد إلا في العام 2000، عبر المفكر الجذموري نعوم تشومسكي.

إذن، دون إعادة تغذية ما يغذي الاكتمال الذي لن نبلغه، سنظل نعبث في مصفوفة يفرضها النظام، ونعتقد أنها الحياة، ونخضع أكثر فأكثر، لأننا نعتقد أننا جزر معزولة، ونسينا قوة وحق الجماعة، بإعادة انتزاع تفويض السلطة، حين لا تخدم الهدف الوحيد الذي منحت السلطة لأجله؛ ألا وهو خدمة الجماعة، وليس هناك من وسيط يمكنه أن يذكّر الإنسان بإنسانيته وانتمائه للنوع البشري أكثر من التعبير الجمالي كتوصيف إجمالي للنشاط الفني؛ هذا النشاط العابر للجنس، والعرق، والثقافة، والدين، والأمة، والعداوة في بعض الأحيان. ففي حين عبر أرئيل شارون العدو الذي كنت سأقول الأكثر تطرفاً لو لم يأتِ من هو أكثر تطرفاً منه، عن إعجابه بشعر محمود درويش، ورغبته بمصافحته، رفضت المؤسسة الصهيونية إدراج أحد نصوصه في منهاج أحد الصفوف؛ خشية أن يفضح ما تحاول أن تدفنه من إنسانية الفلسطيني عبر نشاطه الفني الذي يخترق الأيديولوجيا، وبهذا أكون قد تعاملت مع مفهومي العزلة والقيم الاجتماعية، وإن بشكل فيه بعض الاقتضاب، وعلاقتهما بالفن، وفيما يلي سأتناول مفهومي الفناء والعدالة، وعلى الأرجح سأعثر على عشرين مفهوماً آخر لم أتعرض لها، ولمَ لا، فالكتابة الجيدة هي دائماً ناقصة، لأنك تتعلم منها ما لم تكن تعلمه.

ربما كان من الواجب أن أبدأ بتناول مفهوم الفناء لوضوح صلته بالممارسة الفنية والفعل الجمالي، أقله ما قاله محمود درويش في جداريته «يا موت هزمتك الفنون جميعها وانتصرت وأفلت من براثنك الخلود»، وأعمقه وأبعده في معناة جلجامش في بحثه عن عشبة الخلود التي سرقتها منه الأفعى، وأصبحت رمزاً كونياً للصيدلية كمتجر إطالة العيش أو تأجيل الفناء. جلجامش المخذول من غياب صديقه البري الجمالي إنكيدو، الذي اقترح عليه الاستسلام للفناء بابتداع خلود معنوي ينتج من الفعل الجيد الذي

جانب من أعمال الأطفال الفنية خلال ورشة إحياء الدمى في التعليم، 2016.

سيخلد ذكرى من لا يخلد، والفعل الجيد هنا فعل جمالي بامتياز، لأنه ضرب من ضروب القول «كنا يوماً هنا»، أوليس لهذا خط الإنسان الأول أول خط على جدار الكهف، فالفن كمضاد للفناء يوسع طيف الفعل الجمالي، ليشمل كل ما نفعله أو لا نفعله، لنترك أثراً لمرورنا بالحياة، وبهذا هو ليس القصيدة النجباء، أو اللوحة الخالدة، أو أشكال الفنون الأخرى فحسب، إنما هو أيضاً في الإنجاب والتنشئة ونقل الموروث الثقافي، فالتعليم وبجل فحواه هو في جوهر هذا الفعل، ولعل الشكل المؤسساتي للتعليم جعل من الصعب علينا أن نرى هذه الطبيعة للتعليم، لكن هذا أكثر تجلياً في الحالة قبل المؤسساتية، علاقة المعلم بمريديه، كاستمرار لمعرفة المعلم ووصولها للأجيال القادمة، وإذا كان المعلم ذكياً، فسيطلب من مريديه أن يوصلوها مضافاً إليها ما أنجزته تعاليمه فيهم، أي مع فائدة مع سوء التشبيه.

جانب من ورشة إحياء الدمى في التعليم ضمن سلسلة لقاءات في تطوير الدمى ثلاثية الأبعاد، 2016.

وهذا أيضاً يقودنا إلى سؤال آخر حول طبيعة الفن الجيد ومعاييره؛ ألا وهو الاختراق الزماني والمكاني والثقافي، واختراق معايير الذائقة السائدة، وتوسيع محدودية الشكل الفني أو تطويره. وهنا نسأل: هل كان إسخيليوس وسوفوكليس وشكسبير وكل من ترك أثراً خالداً في الفن أو المعرفة أو العلم، هل كانوا ظواهر منقطعة النظير؟ لو قلنا بهذا، لكنا نقول بما قاله الأبله فوكوياما في «نهاية التاريخ» بالبطل الأمريكي، لم ينتهِ التاريخ ولم يستنفد الإبداع بعد، ولست هنا بحاجة إلى تقديم أيّ دليل لا تقدمه الحياه يومياً لكل من أيقظ حسه، ولعل فكرة العبقرية الفذة لعبت دوراً مهماً في إقناع الكثير من الناس بأن البعض يولد عبقرياً، والآخر عادياً، أو حتى أقل من عادي، أوليس هذا ما نفعله طوال الوقت تحت مسمى التعليم؟ ألسنا نعقر مخيلة طلابنا حين نجزر أسئلتهم الطازجة؟ ألسنا نجني على ممكناتهم حين نقنعهم بأن المعرفة منجزة وموضوعة بين دفتي الكتاب المدرسي؟ بلا نحن نفعل ذلك وأكثر، على التعليم أن يجعل كل طفل يتعلم أنه استثناء، لأن الاستثناء هو المعيار، وقد يكون إضافة نوعية ومهمة إلى المعرفة، هذا إذا أردنا عالماً فيه أمل بالغد، وكما قال دان ملمان «لقد كنت طوال الوقت استثنائياً بمعيار عادي، أما الآن فأنا عادي بمعيار استثنائي».[11]

وأخيراً، مفهوم العدل، وسأبدأ بتناول موضوع العدل في الشكل الفني، ثم أتعاطى مع جانب ارتباط الفن بالحياة. فالشكل الفني هو بحد ذاته بحث عن عدالة تنتج الجمال في الوسط، فهو عدالة في توزيع الفراغ والحصص في اللوحة، والعدالة في المسافات في الخطوط والزخرفة، والعدالة في حق الشرير أن يكون له سبب جعله كما آل إليه في المسرح، وعدالة تتابع النغمات هروباً من النشاز في الموسيقى، وعدالة توزيع الصوت البشري بين المعنى والموسيقى في الشعر، ولعله -أي العدل- الرابط الأهم بين الفن والحياة، ولعله أيضاً من المعايير التي تجعل من الفن بوابة للقول الاجتماعي والسياسي والتربوي دون التنازل عن شروطه الجمالية. فأنا أؤمن أن على الفن أن يبقى لصيق الشأن بالحياة، ليس ليصفها، أو يعيد إنتاجها، أو يكرّس المكرس، ولا ليتعالى عنها باعتبارها دونية لمثال علوي، ولا أن يتنازل عن حصته فيها بحثاً عن طريقه للسوق، بل هو جوهري في وجوده فيها، ليدفعها أماماً نحو مستقبل أفضل. وحاجتنا للعدل أيضاً هي حاجة فطرية، لأن الصفة الأعم لوجودنا هي انعدام العدل، فهو وجود لم نسأل قبل وجودنا فيه إذا كنا نريد أن نكون فيه، ولم يخبرنا أحد بما سنواجهه عبره، وبين أَلَمَيْ "الولادة والموت"، فإذا كان أساس وجودنا غير عادل، فإن كل ما يترتب عليه من تفاصيل حيواتنا الفردية والجمعية ملحق بانعدام العدل، هذا الوجود الذي لم نختر تقريباً أي شيء فيه سوى البقاء فيه، وهو الخيار الناسخ لكل عدم اختيار سابق، وهو عقال مسؤوليتنا وسؤالنا لأنفسنا عما سننفق وجودنا فيه، وإجابة الفن عن هذا السؤال هو ليس أكثر من أن نتركه أفضل مما أتينا إليه، ولو بقليل، وهذا يقودنا إلى الطبيعة المؤثرة والنفاذة للفن،

القادرة على نقل العدوى الشعورية عبر الأثر التطهري كما رأته التراجيديا، والتعاطفي أو التراحمي كما اعتقدت الغالبية العظمى من الفنانين والمدرسة الروسية بالذات، والنقدي كما حاول بريخت عبر التماسف والتغريب، أو انغماسي لرؤية الذات ونقدها وتعريتها من الأيديولوجيا كما يحاول إدوارد بوند، أو هذا كله وأكثر، فما هو هذا الأكثر؟ إنه الأقل أو القليل الذي يفصل "نا" عن اكتمالنا، ويدفعنا نحوه دائماً وأبداً.

ختاماً، ربما لم أورد أمثلة كافية عن كيفية توظيف الفن في التعليم، وذلك لأن أخرين كثراً أوردوا واستطردوا في ذلك، وكثير من هذه المنشورات متوفر ومترجم ويمكن الوصول إليه عبر مكتبة القطان وأماكن أخرى بالتأكيد، لكن كان همي في هذا المقال التعبير عن ضرورة الفن في التعليم إذا اردنا تعليماً أفضل يقود إلى حياة أفضل، نحن مفطورون على البحث عنها، وعن المعنى تقريباً في كل شيء، المعرفة والجمال والعدل كليات لأنها تحوي نقائضها، فالمعرفة لا تبدأ حقيقة إلا عندما تجد الطريق إلى ما ينبغي أن لا تعرفه، والجمال في قمته حين تحوّل ما هو بلا قيمة، أو بالأحرى عديم القيمة كقطعة قماش تنتشلها من حاوية نفايات، إلى لوحة، والعدل حين تقول ما ينبغي أن تقول حتى وإن كنت تعلم أنه سيجلب عدم العدل عليك، أو على من تحب، أو أردت أن تحقق له العدل، وبعد ذلك فقط آينشتاين محق.

باحث في مركز القطان

الهوامش:

1 كنت توسعت أكثر في هذا المبحث في مجلة المرصد التنموي، العدد الرابع ضمن المقال المعنون «الأكاديميا: رسملة المعرفة»:
http://ar.bisan.org/sites/default/files/website.pdf

2 نشرت في العدد 42-43 من رؤى تربوية.

3 Mr. Peabody and Sherman

4 حسين البرغوثي. مرايا سائلة. القدس: اتحاد الكتاب الفلسطينيين، الطبعة الأولى، 2000.

5 عدنية شبلي. كلنا بعيدون بذات المقدار عن الحب. رام الله: مؤسسة عبد المحسن القطان، الطبعة الأولى، 2004.

6 ا إدوارد غاليانو: «الحياة بلا خوف»:
https://www.facebook.com/amjadjaber85/videos/1668236080102546/?fallback=1

7 مراسلات بين فرويد وآينشتاين جاءت في مقدمة كتاب: سيجموند فرويد. موسى والتوحيد. ترجمة: جورج طرابيشي، بيروت: دار الطليعة، ط 4، 1986.

8 للاستزادة، يمكن مراجعة بحث زكريا محمد «ديانة العرب قبل الإسلام»، وحسين البرغوثي «الرياضيات المقدسة .. بحث في ديانة العرب قبل الإسلام».

9 مصطلح أطلقه نعوم تشومسكي في مقالة «الربح فوق الشعب» في العام 2000.

10 Pink Floyd The Wall.

11 Way of the Peaceful Warrior. Dan Millman. 1980.

ورشة فنية بإشراف الفنّان الاسكتلندي روس جورجوسن في مركز المعلمين/نعلين، 2016.